بنية سردية

إيران ومحور المقاومة

حلفاء لا وكلاء

12-12-2024

مقدمة

يسوق التحالف الاميركي الاسرائيلي المتعدد الجنسيات مقولة يصر دائمًا عليها وهي انهم يخوضون حربا ضد وكلاء ايران في الشرق الاوسط، وانهم اذا قضوا أو فككوا أو قطعوا الصلات بين تلك الاذرع الايرانية يسهل عليهم الانتقال الى المهمة الاكبر وهي الاستفراد بايران والهجوم عليها عسكريًا وامنيًا وسياسيًا والقضاء على ما يسمونه "نظام الملالي"، ويكررون القول ان ايران تستخدم هؤلاء الوكلاء/ الأذرع للدفاع عن مصالحها وانهم خط دفاع متقدم عنها، وأنها تقدم مصالحها على مصالحهم. وحاليا فان برنامج العمل الاميركي الاسرائيلي الذي بدأ من غزة وانتقل الى لبنان وينفذ حاليًا في سوريا هدفه النهائي أن يحاصر ايران ويطوقها وينقضّ عليها بعد ان يُفقدها أوراق القوة والضغط وخطوط الدفاع الخارجية. بهذا المعنى تحدث رئيس وزراء العدو بنيامين نتنياهو في كلمته المسجلة التي اعلن فيها موافقته على وقف اطلاق النار في لبنان. وتتكرر تصريحات بذات المعنى والمضمون في "تل أبيب" وواشنطن ولدى مسؤولين رسميين وخبراء ومراكز أبحاث مرتبطة بالادارة الاميركية.

في احدث خطابٍ له يوم الاربعاء (2024/12/11)، اكد قائد الثورة الاسلامية الامام السيد علي الخامنئي دام ظله، "إن المقاومة بحول الله ستغطي المنطقة كلها أكثر من أي وقت مضى، وان ايران قوية وستصبح أكثر قوة، وان جبهة المقاومة هي هذه، كلما زادوا الضغط عليها ازدادت صلابة، وكلما ارتكبوا الجرائم اشتدت عزيمتها، وكلما حاربوها اتسع نطاقها. وأقول لكم بعون الله تعالى، إن نطاق المقاومة سيتسع أكثر من ذي قبل ليشمل كل أرجاء المنطقة". واضاف سماحته: "ذلك المحلل الجاهل الذي لا يدرك معنى المقاومة يتوهم أنه إذا ضعفت المقاومة فإن إيران الإسلامية ستضعف أيضاً. وأنا أقول بعون الله وقوته وبإذن الله تعالى، إن إيران قوية مقتدرة، وستزداد قوة واقتداراً".

العداء لايران

يختصر خطاب الامام الخامنئي حفظه الله – الذي خصصه للتطورات الحالية في سوريا بعد انتهاء نظام الرئيس بشار الاسد - تلك المقولات التي يجهد الطرف الآخر لتسويقها منذ سنوات ويبني عليها استراتيجيته في مواجهة ايران، ويحاول تشكيل قناعة في العالم والمنطقة حول اسباب القوة والاقتدار الايرانية وطريقة تفكيكها.

ولهذه المقاربة الغربية الاميركية الاسرائيلية خلفية اساسية انها بُنيت على تحليل تقليدي مادي لكيفية بناء العلاقات الخارجية وتوظيفها في زيادة وتأمين وحماية المصالح القومية والخارجية للدول القوية. وبسبب اعتمادهم لنظرية عالم السياسة الشهير هانس مورغنتاو حول "الواقعية السياسية" التي تعتنقها الولايات المتحدة وتقوم على قاعدة "الفصل بين الاخلاق والسياسة" وتقديم مصالح الدول على أي اعتبارات دينية أو انسانية او اخلاقية (او الثلاثة مجتمعة)، فانهم يسقطون نظريتهم هذه على جميع الظواهر السياسية ويفسرون نشوء وتطور العلاقات بين الدول او بينها وبين بعض القوى/ الجماعات غير الدولتية، انطلاقا من مبدأ المنفعة والمصلحة المادية حصرًا ويجردونها من اي عوامل واعتبارات أخرى. ويعتبرون ان الدول التي تتوافر لديها عناصر قوة وتفوّق توظف كل تحالفاتها وارتباطاتها الخارجية لحماية مصالحها فقط، وتستخدم حلفاءها لهذه الاغراض "الانتهازية" (في الغرب لا يعتبرونها انتهازية بل يحتفون بها بوصفها قاعدة عمل واقعية)، لذلك يحاولون تكريس هكذا انطباع في استخدام المفردات التي تثبت هذا المعنى مثل وصف تحالفات ايران بأنها علاقة وكالة او ادوات، فيسمون مثلًا حزب الله وحماس والجهاد الاسلامي والحشد الشعبي وفصائل المقاومة العراقية وانصار الله وكلاء او أذرع ايران في الشرق الاوسط. ويمكن بيقين الجزم أن الاعلام الغربي والاسرائيلي والاقليمي أو المحلي المرتبط بهما، إنما يواظب على تكرار وتكثيف استخدام هذه المفردات والمصطلحات لتكريس هذا المفهوم بناء على برنامج عمل اعلامي معمم وموزع على جميع هذه المؤسسات الاعلامية وايضا الصحافيين والخبراء والمحللين والاكاديميين. ويطلب كذلك من مراكز الابحاث إعداد ونشر أبحاث حول هذا الموضوع بشكل مستمر. وبالتالي ليس هناك أي مجال لتفسير هذا التكثيف لترويج هذه المصطلحات على أنها اجتهادات شخصية أو مبادرات فردية بل هي جزء من برنامج عمل مقرر مسبقا عن سابق تصور وتصميم.

خلفية تاريخية

يعود تاريخ هذه المقاربة الى اللحظة التي انتصرت فيها الثورة الاسلامية في ايران بقيادة الامام روح الله الخميني شتاء (شباط/فبراير) عام 1979 والتي أسقط فيها الشعب الايراني اقوى نظام شرق اوسطي يُدار مباشرة من الادارة الاميركية، وهو البلد الوحيد الذي كان يضم حوالي ستين الف مستشار عسكري اميركي (أحد اسباب الثورة قانون الحصانة الذي اقره البرلمان الايراني آنذاك ومنح الحصانة للمستشارين الاميركيين وكلابهم بحيث اذا تعرض لهم أي مواطن ايراني يتم سجنه ومحاكمته).

كما كان هذا البلد يضم أكبر سفارة اميركية في الشرق الاوسط وأكبر محطة للاستخبارات الاميركية الخارجية (سي آي ايه). ومن دون العودة الى السردية التاريخية فان المفردة الأولى التي استخدمها الغرب (ساسة وباحثين واعلام) هو "تصدير الثورة" من اجل تخويف المحيط العربي والاسلامي من خطر التمدد الايراني. ويمكن مراجعة أي تصريح أو مقالة أو تقرير صحافي اجنبي عن تلك الفترة ليجد كيف تم تعميم وتسويق هذه المفردة مع مفردات أخرى مثل "نظام الملالي" و"نظام آية الله" نسبة الى الامام آية الله العظمى السيد الخميني (قدس سره)، وغيرها من المفردات التي وسمت الثورة الاسلامية ثم الجمهورية الاسلامية بالظلامية والاستبدادية والديكتاتورية الدينية.

والحقيقة ان هذا النظام الجديد كان تعبير عن ثورة الغالبية للعظمى للشعب الايراني وتم اقراره في أكبر استفتاء شعبي حصل بعد انتصار الثورة وبطلب من الامام الخميني نفسه، وأخضع فكرة النظام الاسلامي والحكم الجمهوري الاسلامي لهذا الاستفتاء الذي شارك فيه الايرانيون بكثافة وصوتوا لصالح الحكم الجمهوري الاسلامي بأغلبية ساحقة وباختيار حر. وربما كان هذا هو الاستفتاء الوحيد الذي جرى في الشرق الاوسط والعالم الاسلامي في التاريخ المعاصر وفي القرن الماضي.

ورغم ان هذا الاستفتاء منح المشروعية الشعبية غير المسبوقة في المنطقة للنظام الجديد والجمهورية الجديدة كجزء من الحق في تقرير المصي،ر فإنها خضعت على الفور لسلسة محاولات إنقلابية قادتها الاستخبارات الاميركية وتم افشالها من قبل القيادة والجمهور الاسلامي والحرس الثوري، وتجاوزت هذه الجمهورية الوليدة أخطر الاستحقاقات بعد اغتيال اغلب قياداتها وقيادات الحزب الجمهوري الاسلامي ومحاولة اغتيال الامام الخميني نفسه في عدة عمليات بينها عملية صحراء طبس الشهيرة التي كانت تشارك فيها طائرات حربية اميركية.

وقد كان انطلاق الثورة الاسلامية وادارتها وانتصارها وتأسيس الجمهورية الاسلامية عمل ايراني محض لم يقف فيه مع الشعب الايراني أحد في العالم، بل على العكس خضعت هذه التجربة لحصار فوري خصوصًا بعدما رفعت شعارها السياسي الشهير "لا شرقية ولاغربية" وأنها دولة اسلامية جديدة غير مرتبطة بقطبي الحرب الساخنة/ الباردة آنذاك الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

حرب صدام: الاستنزاف والحصار

خريف العام 1980 (ايلول/سبتمبر) تعرضت للجمهورية الاسلامية لحرب مفتوحة شنها نظام صدام حسين من العراق بدعم اميركي اوروبي خليجي شرق اوسطي (باستثناء سوريا التي دعمت الجمهورية الاسلامية وسلطنة عمان التي وقفت على الحياد)، واستمرت الحرب طيلة ثماني سنوات قاتلت فيها ايران لوحدها بأسلحة قديمة واخرى تم لاحقا تصنيعها داخليا، وبكفاءة شبابها وحرسها الثوري، واستخدمت ضدها الصواريخ الباليستية المدمرة والاسلحة الكيميائية ومنع عنها حتى شراء الاسلاك الشائكة من الخارج، وبقيت صامدة حتى صدور قرار مجلس الامن الدولي 598 في صيف العام 1988 (آب/ أغسطس). وتجاوزت ايران الاسلامية أخطر القطوعات في تاريخها باكتفاء ذاتي محض من دون أي مساعدة خارجية، وبقي الغرب بقيادة الولايات المتحدة ملقياً بثقله من أجل إسقاطها ودعم نظام صدام حسين، لكن الجمهورية الاسلامية ثبتت وحافظت على وجودها وهويتها ومشروعها الاسلامي المحمدي الأصيل المتمسك رسميًا وشعبيًا وعلنًا بنصرة المستضعفين وخصوصًا دعم القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني بلا أي تردد، وبلا أي مقابل ومن دون النظر الى الهوية السياسية للمقاومة الفلسطينية سواء كانت منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات او الفصائل العلمانية او لاحقًا الفصائل الاسلامية حماس والجهاد الاسلامي. وبقيت ايران متمسكة بموقفها القطعي العلني الداعي والعامل لازالة اسرائيل (الكيان السرطاني الصهيوني) من الوجود والرافض لأي مساومة على هذا الموضوع.

وحتى تاريخ انتهاء الحرب عام 1988 وفشل البرنامج الاميركي لاسقاط التجربة الاسلامية لم يسجل ان أيران كان لديها حلفاء أو وكلاء أو أذرع ساعدوها كي تبقى وتصمد، ولم يكن محور المقاومة موجودا ولم تكن ابرز مكوناته (حزب الله والمقاومة العراقية) كما هي في وضعيتها الراهنة كي يسجل لها انها ساهمت ولو بشكل محدود في الحفاظ على نظام الجمهورية الاسلامية (سيأتي حالا" كيف تحملت ايران الاسلامية عبء المقاومات اللبنانية والعراقية والفلسطينية وهي، اي طهران، في ذروة تعرضها للعدوان العسكري والحصار المطبق).

لقد امتلكت الجمهورية الاسلامية القدرات والكفاءات الذاتية والرعاية الالهية التي مكنتها من تجاوز أخطر المؤامرات المصيرية بما فيها تلك التي تزامنت بين حرب صدام ومؤامرة بني صدر الذي اشتغل من موقعه في رئاسة الجمهورية لمحاولة اسقاط النظام الاسلامي، ومع ذلك فشلت كل تلك العمليات السرية والعلنية والحرب المفروضة في اعادة ايران الى زمن الشاه والتبعية الاميركية المفرطة رغم تفاوت عناصر القوة وميلان ميزان القوى لصالح المعسكر الكبير الذي تقوده واشنطن لاجهاض التجربة الاسلامية. ولم يكن لايران في تلك المرحلة سوى عدد محدود جدًا

من الدول العربية والاسلامية وفي اميركا اللاتينية التي تقيم علاقات ديبلوماسية معها من دون ان تتمكن من الاستفادة منها في دعم قدراتها العسكرية والاقتصادية، ومع ذلك بقيت صامدة وانتصرت وكانت بحق معجزة لا يمكن لأدوات علم السياسة ومنهجيات تحليل السياسات والعلاقات الدولية المعتمدة فهم هذه الظاهرة الفريدة وكيفية ثباتها وبقائها، لا بل انتقالها السريع من وضعية المهدد وجوديًا الى وضعية الخطر الوجودي على الكيان الاسرائيلي والخطر الاستراتيجي على المشروع الاميركي في الشرق الاوسط والعالم الاسلامي، وذلك بُعيد انتهاء الحرب بسنوات قليلة وذلك على الرغم من خسارة ايران القائد الملهم والمؤسس للجمهورية الاسلامية الامام الخميني في صيف العام 1989 (حزيران/ يونيو).

فلسطين: الثبات المبدئي

رغم الظروف التي تم سردها أعلاه في فترة التأسيس وسنوات الحرب الثمانية ورغم عدم وجود أي عملية مناصرة خارجية لايران، بل ان الجمهورية الاسلامية خصصت حيزًا كبيرًا من جهودها السياسية والعسكرية والثقافية والاعلامية لدعم المستضعفين في العالم قدر استطاعتها وبموجب تكليفها الديني الذي ضمنته في دستورها بشكل رسمي، وجعلت من دعم المستضعفين ثابتة في سياستها الخارجية وهي سابقة دستورية غير موجودة، نظراً لما قد يثار (عن باطل من قبل اعداء ايران) حول هذا البند من تجاوز لمبدأ سيادة الدول والتدخل في شؤونها. وهو أمر ليس بسيطا في عالم يحكمه قطبان يحتكران النظام العالمي وعناصر القوة ويستبيحان سيادة الدول ومصالحها ويخضعان أي دولة لضوابط مرحلتي الحربين الساخنة والباردة دون أن يجرؤ احد على رفع صوته ضد هذا الاحتكار العالمي للقوة والمصلحة سوى الجمهورية الاسلامية بقيادة الامام الخميني الذي بقي ثابتا" على رؤيته ومشروعه ومواقفه متمسكا بهذه المبادىء الثورية.

ولقد كانت فلسطين المحتلة مركز الاهتمام الايراني الأول قبل انتصار الثورة وبعد انتصارها وتأسيس الجمهورية الاسلامية، والتي كان لديها الجرأة الزائدة لتحويل السفارة الاسرائيلية في طهران الى سفارة لدولة فلسطين واستقبال الرئيس ياسر عرفات وباقي فصائل المقاومة دون اي تمييز، واطلاق برنامج دعم عسكري ومالي وسياسي واعلامي وثقافي لم يتوقف لحظة حتى الان رغم كل المطبات التي مرّت بها القضية الفلسطينية، بما فيها مسار المفاوضات التي انطلقت في مدريد وانتهت في اوسلو.

لم تشهد طهران اي تراجع في تبنيها ودعمها المطلق واللامشروط للقضية الفلسطينية وفصائل المقاومة وهي في ذروة تعرضها لعدوان مفتوح من صدام حسين، وبقيت طهران تخصص جزءًا من مواردها وقدراتها لدعم فلسطين وقضيتها وتحريرها من النهر الى البحر، وبقيت المؤتمرات واللقاءات الدولية والاقليمية برنامجًا دوريًا فصليًا وسنويًا في الجمهورية الاسلامية وجزءًا من خطابها السياسي والثقافي والاعلامي على كل المستويات دون إظهار أي تراجع أو تنازل حتى في أصعب الظروف ورغم تخلّ الجميع تقريبًا في مرحلة من مراحل الصراع العربي الاسرائيلي عن هذه القضية.

هذا الكلام ينطبق فقط على مرحلة الثمانينات التي ليس فيها لايران أي حليف/ وكيل/ ذراع، بل كانت هي حقيقة وبكل ما للكلمة من معنى علمي رصين الحليف والوكيل والذراع لفلسطين وقضيتها وفصائل مقاومتها، بدليل أنها ورغم كل ما تعرضت له من مواقف سلبية من منظمة التحرير في مرحلة من المراحل بقي سفير منظمة التحرير الفلسطينية صلاح الزواوي المحسوب على حركة فتح وياسر عرفات مقيمًا في طهران يمارس كل مهامه ويتنقل من مقر الى آخر ويتلقى الاهتمام والدعم المطلوب بلا أي أسقف وبلا أي شروط او مقابل. وبقيت أبواب طهران الدولة والحرس الثوري مفتوحة لكل القيادات والفصائل الفلسطينية القديمة والجديدة، وتحملت الجمهورية الاسلامية في احلك الظروف واريحها كل الاثمان والاكلاف دون أي تردد أو تعب او ملل ورفضت كل العروض المغرية لترك قضية فلسطين مقابل تحكيمها من قبل الولايات المتحدة بكل أنظمة المنطقة لو شاءت كما كانت زمن الشاه، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا أي مساومة، ولا تزال على موقفها رغم كل التغيرات السياسية العالمية والاقليمية وحتى المحلية، تفيد بقدر ما تستطيع وأكثر اصحاب فلسطين وأهلها.

وثمة سؤال على شكل امتحان لكل من يقدم سردًا مناقضًا أن يقدم دليلًا عما استفادته الجمهورية الاسلامية كدولة وقيادة وشعب مقابل دعمها لفلسطين سوى انها كانت منسجمة مع تكليفها الديني والاخلاقي والانساني ومنسجمة مع قناعاتها وثوابتها ومبادئها. ويمكن لأي مهتم ان يستخدم محركات البحث في الشبكة العنكبوتية للتحقق من صحة الوقائع وخلفياتها وسيجد صعوبة في المقارنة بين الاثمان الباهظة جداً التي دفعتها ايران في كل المجالات مقابل دعمها للشعب الفلسطيني وقضيته، وليحدد بإنصاف ما هي العوائد والمصلحة القومية الايرانية التي حققتها غير تعرضها لأشد وأقسى العقوبات الدولية والاميركية والأوروبية والعربية والتي

عانت ولا تزال تعاني ويعاني بسببها الشعب الايراني.

طوفان الأقصى: الدليل الأقوى

من دون الاستفاضة في التاريخ الطويل لعلاقة ايران الاسلامية بفصائل المقاومة الفلسطينية ودورها الاساسي في بناء قدراتها العسكرية والقتالية واحتضانها السياسي والاعلامي تختصر عملية "طوفان الاقصى" كل تجربة هذه العلاقة على مدى عقود الصراع مع كيان العدو. سادت رواية ظهر السابع من تشرين الاول/ اكتوبر 2023 ان ايران اوعزت لحماس بتنفيذ العملية لاجهاض مشروع التطبيع وصفقة القرن التي كانت تقودها الولايات المتحدة لمد الجسور التطبيعية بين المملكة العربية السعودية والكيان الصهيوني. بعد أسابيع قليلة وتحقيقات مكثفة من قبل اجهزة الاستخبارات الاميركية والاسرائيلية والاقليمية واخرى أوروبية ومتعددة الجنسيات، تبين بالدليل الحسي ان احداً في طهران أو في محور المقاومة كان له علم مسبق ولو بتفصيل بسيط عن العملية او التحضير لها أو خلفيتها، وأن القيادة العسكرية والأمنية لحماس في قطاع غزة هي من أعد وحضر واتخذ القرار بشكل منفرد وآحادي ودون التنسيق مع أحد حتى مع القيادة السياسية لحركة حماس. ومع أن قائد عملية طوفان الاقصى الشهيد يحيى السنوار أكد مراراً في تصريحات علنية أن اغلب القدرات العسكرية التي توافرت على مدى سنوات وتم بناؤها في قطاع غزة هي بدعم وتمويل ايراني وباسلحة ونماذج اسلحة ايرانية، الا انه تأكد انه لم يتم ولو اشعارها عن بعد بالتحضير لمثل هكذا عمل ادخل الشرق الاوسط في تحول غير متوقع في حينه وفاجأ الجميع.

وقد أظهرت العملية بشكل جلي القرار الفلسطيني المستقل الذي تفرد بكل التفاصيل وأخذ ايران ومحور المقاومة الى مكان لم يكونوا مستعدين له مسبقًا، ومع ذلك دعمت ايران العملية واسبغ عليها الامام الخامنئي الشرعية وصِفة الضرورية والمصلحة لما قامت به حماس في غزة خلال اول لقاء له مع رئيس مكتبها السياسي الشهيد اسماعيل هنية.

بهذه الوقائع والاثباتات والمواقف وكل ما جرى لاحقًا بعيد السابع من اكتوبر تسقط كل مقولات الاذرع والوكلاء ويتبين حجم الاستقلالية وانعدام التبعية في العلاقة بين حماس وايران رغم ان الأخيرة لم تتوانَ في أي وقت حتى في لحظة تأزم العلاقة بينهما بعيد ما سمي الربيع العربي، الا أن ابواب طهران بقيت مفتوحة في كل وقت، وبقيت ايضًا المكان الذي تجد فيه حماس وبقية الفصائل الفلسطينية الحرية الكاملة في التعبير عن رؤيتها ومواقفها وطموحاتها بلا حسيب ولا رقيب ولا مقابل.

بهذا المعنى يمكن القول إن ايران سارت وراء قرار حماس وأيدت عمليتها ودعمتها ولا تزال بالرغم من الاثمان الباهظة التي تكبدتها. كل ذلك يعني باختصار طبيعة العلاقة العقائدية المبنية على مصلحة محض فلسطينية تؤمن بها ايران وتجهد لتحقيقها بعيدًا عن حسابات ومفردات الطروحات الانعزالية الاستفرادية الاستفزازية التي تطل تارة باسم "استقلالية القرار الفلسطيني" أو "غزة أولا" وغيرها من العبارات التي لا يزال خصوم ايران ومحور المقاومة يجتهدون لكي وعي الجمهور فيها، وخلق انطباعات معاكسة لطبيعة وحقيقة العلاقة بين الجمهورية الاسلامية وأي من مكونات محور المقاومة، ذلك ان هؤلاء الخصوم المحكومين بنمط التبعية والانقياد وانعدام الاستقلالية في علاقتهم مع سيدهم الاميركي او مشغلهم الاسرائيلي لا يصدقون أن هناك انماطًا أخرى من العلاقات بين قوى ودول قائمة على الايمان بقضية وتقديسها والتفاني والتضحية في سبيلها، وتجاوز كل الاعتبارات والبروتوكولات وطقوس العلاقات السيادية ولوازمها عندما تتعلق القرارات والاجراءات والمواقف بالتزام ديني اخلاقي انساني يسمو على كل ذلك ويسقط ما يسمى نظرية الواقعية السياسية وطقوسها المتأسسة على الفصل اللاإنساني بين الاخلاق والسياسة.

بلغة هؤلاء لقد قبلت ايران طوعًا بما يمكن ان يسمونه "توريطها" في عملية طوفان الاقصى وقامت بما تستطيع لدعم غزة ومقاومتها وفصائلها، ووقفت وراء الشعب الفلسطيني لتكون هي ذراعًا له تسخر قدراتها لتحريره من الاحتلال، وهذا ليس نثرًا او شعرًا بل وضعية حقيقية أكثر من يعرفها الاسرائيلي نفسه لذلك يضع بنيامين نتنياهو وفريقه ايران في رأس قائمة من يجب ان يقوضون قدراته لكي تتقوض قدرة المقاومة الفلسطينية وليس العكس.

حزب الله: "الوكيل" الأقرب

لا ينفك قادة ومسؤولو وخبراء وإعلام الطرف الآخر عن إسباغ صفة "الوكيل الاول" او الذراع الأقوى لإيران في الشرق الاوسط على حزب الله. الفهم التقليدي الآنف الذكر لعلاقة ايران مع أصدقائها يسقطونه على الجميع من دون اي مراجعة تاريخية لمسار العلاقة بين المقاومة اللبنانية والجمهورية الاسلامية.

لقد كان قد مضى ثلاثة اعوام على انتصار الثورة وتأسيس الجمهورية الاسلامية وعامين على حرب صدام حسين على ايران عندما اجتاحت اسرائيل لبنان عام 1982 ووصلت الى بيروت وانطلقت معه تجربة حزب الله.

في ذروة حاجة ايران الى من يدعمها والى كل رصيد مالي أو ذخيرة عسكرية في مخازنها، وضع الامام الخميني ثقله في دعم المقاومة اللبنانية بما فيها حركة أمل ذات العلاقة القديمة مع الثورة زمن الامام المغيب السيد موسى الصدر، ودعم تأسيس حزب الله اسنادًا لقرار غالبية الشعب اللبناني بتحرير بلدهم من الاحتلال الاسرائيلي. ويمكن بسهولة احصاء المكاسب التي تحققت للبنان وشعبه في دعم وتطوير قدرات حزب الله حتى اصبح جزءًا اساسيًا من المقاومة في مرحلة الثمانينات في حين كانت ايران منهمكة ومنهكة في التصدي لحرب صدام، ولم يسجل انها استفادت من بناء قدرات حزب الله في تحسين وضعيتها وشروطها العسكرية في الحرب المفروضة.

كان ذلك ولا يزال جزءًا من المشروع الذي اطلقه الامام الخميني لاسقاط النظام الصهيوني وتحرير العالم العربي من هيمنته وسيطرته والمساعدة في تحرير فلسطين من احتلاله.

إن الاكلاف المالية والعسكرية التي خصصتها القيادة الايرانية لمقاومة لبنان طوال سنوات التصدي لحرب صدام حسين كانت بحاجة اليها في جبهاتها المتعددة بشكل أكثر الحاحًا ومصيرية، ومع ذلك لم تجعلها هذه الحرب مبتعدة عن قرارها الاستراتيجي بنصرة المستضعفين. هل كان أحد يجرؤ على ان يحلل آنذاك ويقول إن ايران تدعم مقاومة حزب الله لكي يصبح ذراعًا لها كي تحمي برنامجها النووي؟ هل كانت ايران المحاصرة والمتعبة ماليًا في فترة الثمانينات تفكر ببناء برنامج نووي وهي بالكاد تجد ذخيرة قادرة على شرائها من السوق السوداء في العالم؟ تلك الاسئلة والفرضيات كانت من عالم الخيال والهذيان ولم يكن اكثر المنتقدين لايران والخائفين منها يتهمونها بأكثر من السعي لتصدير ثورتها ونموذجها الاسلامي للحكم، وهي في ذلك الوقت بالكاد تستطيع أن تستجمع قواها لتحافظ على وجودها في ظل القرار الاميركي الغربي الاسرائيلي الحاسم باسقاط النظام الاسلامي.

لا يوجد محاججة مقنعة في تفسير تلك المرحلة التاريخية بأن ايران كانت تفكر برؤية استباقية استشرافية لمستقبل يكون لها فيه وكلاء يدافعون عن مصالحها وعن مشروعها النووي وهي آنذاك كانت تصرف من قدراتها المحدودة جدا لتدافع عن المستضعفين والمظلومين في لبنان في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي وبرنامج السيطرة الاميركية على هذا البلد في تلك الفترة.

لقد استفاد لبنان حصرًا من دعم ايران لمقاومته حتى تمكن من تحرير لبنان في العام الفين، واستفاد العالم العربي ايضا من التشكيك بقدرة اسرائيل على الاجتياح والاحتلال مجددًا بعيد تكرار الانسحاب من قطاع غزة كنتيجة لتحرير لبنان.

إن الخلفية الدينية والانسانية هي التي كانت تحكم السلوك الايراني والذي تضررت منه اسرائيل بشكل مباشر، فوصلت مع الولايات المتحدة الى قناعة حقيقية بأن ايران الاسلامية بهذه العقيدة وبهذه التركيبة القيادية والثقافية تشكل خطرًا وجوديًا بذاتها وقدراتها على اسرائيل، فكيف وهي تعتمد سياسة الدعم المفتوح لكل من يقاوم اسرائيل بنية تحرير فلسطين.

بهذا الدور الحاسم في تحقيق الانجازات والجرأة في تقديم الدعم اللامحدود لفصائل المقاومة وإنطلاقًا من فهم هذه الثقافة والخلفية الاسلامية الحاسمة، بدأ النظر الاميركي الاسرائيلي الى البرنامج النووي الايراني المدني والسلمي بوصفه طريقًا للجمهورية الاسلامية نحو مجال تحتكره بضعة دول في العالم ويمكن ان يشكل مظلة حماية استراتيجية لها ومجال دعم اضافي من خلال توفير موارد اقتصادية ومالية تعزز امكانياتها في دعم فصائل المقاومة والدفع قدمًا في مشروع اسقاط النظام الصهيوني.

وبهذه الخلفية تحركت الولايات المتحدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام الفين وواحد وغزت تباعًا افغانستان والعراق لتحتلهما وتتموضع عسكريًا بشكل يفهم منه انها تريد أن تحاصر ايران عسكريًا من أغلب الجهات بما يؤثر على قدراتها الاستراتيجيها وخياراتها الخارجية. وبين غزوتي افغانستان والعراق حاولت واشنطن ابعاد سوريا عن لبنان بالاغراء والتهديد، وكذلك خلقت دينامية خطيرة لتطويق ما تسميه النفوذين السوري والايراني في لبنان بعيد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، لكن برنامج واشنطن أحبط مرحليًا في الانتصار الالهي الذي حققه حزب الله في حرب تموز عام الفين وستة. خرجت تلك الحرب بنتيجة أن حزب الله تحول من قوة تحرير الى قوة دفاع فعالة قادرة على التصدي ببسالة لحرب اسرائيلية ثانية على لبنان كما اسمتها "تل أبيب".

في تلك الحرب تلقى حزب الله دعماً"ايرانيًا مفتوحًا في كل شيء بما فيه مرحلة اعادة الاعمار. برزت ايضا بعض التقنيات العسكرية الايرانية بوصفها ذات فعالية في الميدان.

ربح لبنان بفعل هذا الدعم الايراني للمقاومة معادلة ردعية جديدة ستؤدي الى حمايته لسنوات قادمة، وأدرك اعداء ايران أن فشلهم في مواجهة قوة غير نظامية ذات تدريب وتسليح ايراني يعني عجزًا تامًا عن خوض حرب عسكرية مباشرة مع الجمهورية الاسلامية. هذا هو المكسب غير المباشر الذي سيؤثر على اي مقاربة

عسكرية أميركية اسرائيلية ضد ايران، اما المكسب الرئيسي لحزب الله، فهو الى جانب تثبيت وضعيته المحلية كقوة ردع ودفاع فعالة جدًا عن لبنان فان نتائج وفرت له حماية ذاتية اضافية استنادًا الى تجربة ميدانية استثنائية، وتحول الى قوة إقليمية غير نظامية تؤدي ادوارًا خارجية هامة في أكثر من ساحة مرتبطة بالصراع مع العدو الاسرائيلي ومع المشاريع الاميركية في المنطقة.

البرنامج النووي: المعرفة والمفاعلات والتخصيب

قبل سنوات قليلة من حرب تموز 2006 الاسرائيلية ضد حزب الله، كانت واشنطن قد وضعت في مطلع الالفية الثانية برنامج ايران النووي على طاولة النقاش وتدرجت في التشدد معه بعنوان أنه يمكن أن يتحول في أي وقت الى الاستخدام العسكري ويدخل ايران في نادي الدول التي تملك الرؤوس النووية. برزت بعد تلك الفترة مفردة أميركية شهيرة يتم تكرارها على لسان كبار المسؤولين الاميركيين من الرئيس وصول الى الرتب التالية في الوزارات والاستخبارات ومؤسسات صنع القرار وهي تهديد ايران بأن "كل الخيارات مطروحة على الطاولة دون استثناء" لمعالجة ما يسمونه الخطر النووي الايراني بما فيها العمل العسكري المباشر.

أدارت ايران هذا الملف بحنكة وحكمة بالغين وفي ظروف معقدة مع إطلاق واشنطن برنامج عقوبات اقتصادية ومالية وادارية أحادية ضد الجمهورية الاسلامية طالت كل من يتعامل مع ايران في الخارج، وتدرجت في استخدام هذه الأداة الحساسة والقاسية الى برنامج عقوبات مشترك مع دول اوروبية اتخذت ايضًا قرارات عقابية مماثلة وصولًا الى العقوبات التي صدرت عن مجلس الامن الدولي ضد مؤسسات وافراد في ايران لتطويق البرنامج النووي الايراني السلمي ومنعها من الحصول على الخبرات والتقنيات اللازمة لبلوغ درجات تخصيب اليورانيوم التجارية.

وكان لافتًا أن روسيا التي أبرمت اتفاقيات تجارية مع ايران لتطوير برنامجها وبناء المفاعلات النووية لم تستخدم حتى حق النقض الفيتو في مجلس الامن الدولي لمنع اصدار قرارات العقوبات الدولية رغم استفادتها من طهران بمليارات الدولارات جراء هذه الاتفاقيات، مما يؤشر الى حجم المعاناة التي ستشق فيها طهران طريقها نحو الرفع التدريجي لقدرات مفاعلاتها على التخصيب الى أعلى الدرجات المسموح بها وفق معاهدات الحد من الانتشار النووي التي التزمت بها طهران.

المسار الآخر الذي تعرضت له طهران هو عمليات إغتيال العلماء الايرانيين المرتبطين بالبرنامج النووي والذين كانوا - ولا يزالون مع غيرهم ممن نجوا من

الاغتيالات- يشكلون الرأسمال الحقيقي المرتبطة بالمعرفة النووية - العلم النووي- الذي تم اكتسابه وتطويره حتى باتت ايران تملك معرفة نووية مستقلة ومكتفية ذاتيًا وليست فقط مفاعلات ودورة وقود وتخصيب نووي مستوردة من الخارج، بل ايضًا مصنعة في الداخل وبخبرات محض ايرانية.

مسار ثالث حققت فيه الولايات وشركائها الجرميين إختراقات مهمة، لكن تم احتواء آثارها من قبل الخبراء الايرانيين وهي محاولات الاختراق الالكتروني لتدمير المفاعلات النووية ذاتًيا من خلال فيروسات تم ادخالها الى منظمة التشغيل الالكترونية مثل فيروس "ستاكسنت".

جزء كبير من مرحلة بناء القدرات النووية الايرانية خاضته وادارته وبلغته ايران قبل ان يصبح حلفاء ايران لاعبين مهمين في المسرح الاقليمي، وقبل أن يعلن رسميًا وتباعًا تشكيل محور المقاومة، ليتأكد أن ايران بقدراتها الذاتية استطاعت حماية نفسها، ودفعت ولا تزال تدفع خصومها الى التفكير مليًا قبل الاقدام على ارتكاب حماقة عسكرية ضدها، وراكمت لذلك بنية عسكرية دفاعية كبيرة ومتطورة اتكأت بالدرجة الاولى على قدرات صاروخية باليستية ضخمة جدًا، وعلى اسطول جوي أضخم من المسيرات الهجومية، وعلى قدرة بحرية تتضمن عشرات آلاف الزوراق السريعة والزوارق الطائرة والغواصات الصغيرة التي شكلت بمجموعها قدرات اساسية بنت طهران بموجبها منظومة تشغيلية وفق مفهوم "الحرب غير المتناظرة" التي تستطيع ان تواجه من خلالها أي حرب عدوانية اميركية أو غير اميركية أو متعددة الجنسيات. ومع إدراك أعداء ايران أهمية هذه الترسانة الضخمة من الاسلحة المتعددة المجالات والاستخدامات يمكن القول أنها ردعت الولايات المتحدة عن اعادة طرح الخيار العسكري وأنها بقيت تستخدمه على سبيل الاستهلاك الاعلامي لاظهار انها لا تزال في موقع القوة العظمى. ثم لجأت واشنطن في مرحلة لاحقة الى طرح مقولة ان ايران بنت أذرع خارجية لها تستخدمهم في حالة الاعتداء عليها وتشكل عبرهم أوراق قوة وأدوات ضغط على اميركا واسرائيل كخطوط دفاع لمنعهما من مهاجمة ايران.

ولدحض هذه المقولة يمكن إجراء بحث عبر محركات الشبكة العنكبوتية لمعرفة تاريخ أول تصريح أميركي أو اسرائيلي أو غربي يحذر من أن ايران بلغت أو هي قاب أشهر أو اسابيع من بلوغ العتبة النووية او نقطة اللاعودة التي تضعها في مرحلة القدرة على التخصيب النووي لاغراض عسكرية. سيتم الاكتشاف أن هذه التصنيفات لوضعية ايران النووية قد حصلت قبل ان يتشكل أو يعلن عن محور المقاومة او أن

يصبح حلفاء ايران جزءًا من برنامج قوتها وقدراتها كما تروج الرواية الاميركية الاسرائيلية الغربية.

يختصر هذا المبحث فكرة جوهرية ان ايران كما خاضت تجربة الثورة وانتصرت دون وجود حلفاء أو محور تديره وتشغله، وكذلك خاضت تجربة التصدي لحرب صدام حسين دون توافر اي داعم عسكري لها حليف أو وكيل أو ذراع طيلة ثماني سنوات، وكذلك خاضت تجربة تثبيت وتطوير نظام الجمهورية الاسلامية بمعزل عن توافر أي دعم خارجي، وانها بلغت العتبة النووية - وربما الحصانة النووية- بكفاءة ذاتية وببرامج حماية عسكرية وأمنية محض ايرانية، وأنها وفرت قدرات عسكرية استثنائية ذات نماذج وتصنيع محلي كانت ولا تزال كفيلة بتوفير الحماية للجمهورية الاسلامية بمعزل عن وجود حلفاء أو وكلاء أو أذرع، وأنها معهم أو بدونهم قادرة على الدفاع عن نفسها وردع اعدائها. وهذا هو السبب الرئيس الذي منع ولا يزال يمنع واشنطن ومحورها من التفكير بشن عدوان واسع على ايران يؤدي الى حرب شاملة في المنطقة.

العراق: من فيلق بدر الى الحشد الشعبي

لا تختصر العلاقة بين الجمهورية الاسلامية ومكونات أساسية في العراق بمرحلة معينة. بل هي علاقات متشعبة ومتصاعدة ذات ارتباطات عقائدية ومناطقية وسياسية. فمع بروز نظام الاستبداد العراقي برئاسة صدام حسين واستهدافه فئات عراقية معينة، تحملت ايران عبئًا كبيرًا في استضافة اطياف متنوعة من المعارضة العراقية، التي - واختصارًا - ارتقت الى حد تشكيل فيلق عسكري باسم "بدر" هو الجناح العسكري للمجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق، والذي سيصبح النواة لأبرز تشكيل سياسي عراقي الى جانب حزب الدعوة اللذين نشطًا في مرحلتي ما قبل وما بعد سقوط نظام صدام حسين.

ويمكن تلمس طبيعة العلاقة الايرانية مع الفصائل والقوى والشخصيات العراقية التي اتخذت من ايران مقرًا لها لعقود حتى سقوط نظام صدام، ثم على عادت الى بغداد لتكون جزءًا من السلطة الجديدة التي أشرف الاميركيون على إقامتها بعد احتلالهم العراق، رغم ان أحد أبرز أهداف واشنطن من غزو واحتلال العراق كان تطويق ايران بعدما تم تطويقها من جهة افغانستان.

استقلت القوى العراقية بقرارها بالاندماج في المسار السياسي الجديد، في حين نشأت فصائل مقاومة عراقية تلقت دعمًا من ايران وأطلقت هذه الفصائل برنامج عمليات

عسكرية وأمنية مكثف وفعال انتهى الى خروج مذل لقوات الاحتلال الاميركي البريطاني في العام 2011.

صحيح ان ايران تخففت من مخاطر الانتشار العسكري الاميركي على حدودها لكنها أسدت خدمة جليلة وحاسمة للعراقيين في تحرير بلدهم من هذا الاحتلال الاجنبي الذي كرر تجربة نظام صدام حسين في العنف والجريمة السياسية.

اما المساهمة الثانية فكانت في الدعم الايراني اللامحدود لفصائل المقاومة والحشد الشعبي الذي إنطلق بُعيد ظهور مشروع داعش الذي لامس خطره المقدسات العراقية والتركيبة السكانية والهوية الحضارية، وعادت من خلاله وبذريعته القوات الاميركية لتحتل اجزاء من العراق وتحاول إحكام قبضتها على القرار السياسي والعسكري والمالي في العراق. ورغم الموارد الضخمة التي قدمتها طهران للقوات الحكومية العراقية وللحشد الشعبي ولاقليم كردستان ودورها الحاسم في إسقاط مشروع داعش فإنها لم تحظ بالنفوذ نفسه الذي حظيت به واشنطن والمتهمة بأنها من ابرز المسهلين والداعمين لمشروع داعش، حتى ان واشنطن اغتالت على ارض مطار بغداد قائدي تحرير العراق من داعش نائب رئيس الحشد الشعبي الحاج ابو مهدي المهندس وقائد قوة القدس في الحرس الثوري الحاج قاسم سليماني فيما يمكن وصفه بأكبر اساءة واستفزاز للدولة وللشعب العراقيين.

بهذا المعنى تكون ايران قد قدمت أفضل قادتها وكوادرها في العراق من دون أن يكون ذلك مرتبطًا بعائدات على المصالح القومية الايرانية فيما كانت المصالح العراقية والدولة العراقية هي المستفيد الاول والرئيس من الدعم الايراني وتجنيب العراق خطرًا تكفيريًا لا يحتمل. وهذ كانت خلفية وطبيعة المساهمة الايرانية في حفظ شعب ونظام واستقرار العراق بلا أي مقابل بل بثمن كبير جدًا دفعته عن قناعة وإيمان وعقيدة راسخة في سياستها الخارجية بنجدة المستضعفين.

هل يمكن والحال هذه وصف القوى العراقية السياسية والجهادية هي وكيلة أو ذراع لايران، ام انها هي من كانت وكيلهم وذراعهم وداعمهم في تحرير العراق من الاحتلال الاميركي البريطاني ثم في اسقاط مشروع داعش ثم المساعي المستمرة للمساعدة في بناء نظام سياسي مستقر وإبعاد أي مخاطر عن العراق.

يمكن لأي منصف أن يكتشف بسهولة أن ايران كانت دائمًا أمام العراقيين ووراءهم والى جنبيهم في توفير كل ما يحتاجونه لدعم استقرارهم والحفاظ على استقلال بلدهم، وهي تعرضت ولا تزال تتعرض لإعتداءات من بعض العراقيين ومع ذلك لا تستنكف عن مد يد العون لهم.

اليمن: انصار الله والحرب

يمكن إختصار العلاقة بين انصار الله وايران بانها النموذج الفعلي عن "استيراد" الثورة الاسلامية من قبل اليمنيين وليس تصديرها من قبل الايرانيين كما كان يتهمهم الغرب. قبل بروز قيادة السيد حسين بدر الدين الحوثي وانطلاق المسيرة القرآنية اهتم عدد من القيادات السياسية والعلمائية اليمنية بالثورة الاسلامية، فزاروها واقاموا علاقات معها ومع قياداتها وعلى رأسهم العلامة السيد الحوثي والعلامة القاضي صلاح فليته وشخصيات أخرى اتهمها الرئيس علي عبد الله صالح بإقامة هذه العلاقات وتوجس منها خيفة، وهو الذي كان يشارك بقوة في حرب صدام حسين ضد ايران وزج بآلاف الشباب اليمني في أتون هذه الحرب بارسالهم الى العراق ليقاتلوا ويقتلوا هناك، فيما كان الشطر الثاني الجنوبي من اليمن، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تقيم علاقات ديبلوماسية مع ايران وكانت من الدول القليلة التي زارها الامام الخامنئي عندما كان رئيسًا للجمهورية الاسلامية.

برزت في تلك الفترة تجربتي الشباب المؤمن وحزب الحق في اليمن كحركتين سياسيتين لبناء حيثية زيدية اسلامية في مواجهة عملية التوهيب التي أكتسحت اليمن في فترتي السبعينات والثمانيات، وكان لقادتها علاقات بادروا هم اليها مع طهران. لكن مع إجهاض هاتين التجربتين ومع دخول المنطقة مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر والغزو الاميركي للمنطقة، أخذ السيد حسين بدر الدين الحوثي - الذي شارك في تأسيس تجربتي الشباب المؤمن وحزب الحق- زمام المبادرة وقاد عملية توعية ثقافية دينية سياسية شاملة، مستعينًا بالنص القرآني الشريف في إعادة بناء وتشكيل وعي الشباب اليمني الذي وجد في قائده الجديد وخطابه خصائص مميزة جذبتهم اليه. وكان لافتصا في المحاضرات المكثفة التي ألقاها السيد حسين خلال أقل من ثلاث سنوات بين تحركه واستشهاده في ايلول/ سبتمبر عام 2004 انه استعان بالتجربة الثورية الاسلامية الايرانية وبقيادة الامام الخميني كنموذج حي وملموس ومعاصر لإمكانية تحقيق التغيير في ظروف أصعب ما يمكن وصفها بالخيالية، واسقاط نظام يعتبر من الأقوى في المنطقة. وتكرر استشهاد السيد حسين بأقوال الامام الخميني وتفسيره للاحداث والمعضلات الحقيقية التي تواجه الامة الاسلامية والدور الشيطاني الاميركي الصهيوني في منع قيام الأمة بواجباتها واستثمار قدراتها. وكان هذا الاعجاب من السيد حسين بالامام الخميني والثورة والجمهورية الاسلاميتين حصيلة قراءة وقناعة ذاتية عبر عنها بصدق وبوضوح وثبات رغم ما تعرض له من اتهامات بمحاولة إحياء حكم الامامة، ولم تكن هذه القناعة ناجمة عن مبادرة ايرانية

تجاهه لتسويق فكر الثورة ومشروعها. كذلك استشهد السيد حسين بتجربة حزب الله في إطلاق المقاومة ضد اسرائيل وصولًا الى تحرير لبنان من احتلالها له عام الفين وقيادة السيد حسن نصر الله وكان ان أسبغ على مقاتلي حزب الله صفة سادة المجاهدين في العالم.

هكذا بنى السيد حسين الحوثي حركة انصار الله انطلاقًا من صرخة ضد اميركا واسرائيل واليهود بناًء على فهم عملي للقرآن الكريم مطلقًا حركة جهادية ثقافية تبشر بإمكانية النهوض وتغيير الواقع واداء الواجب الاسلامي بالاستناد الى تجربتين معاصرتين في ايران ولبنان.

ومع استشهاده وتبلور حركة انصار الله تباعًا وخوضها ست حروب خرجت في ختامها منتصرة في الميدان عام 2010 دون أي علاقة او اتصال مع ايران، كانت الاخيرة في ذلك الوقت تواصل حركتها التطورية النووية والعسكرية والسياسية وتحسين موقعها الاقليمي من دون اي ارتباط مع المسار الجهادي الاسلامي الجديد في اليمن بقيادة السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

من ثم أصبحت حركة انصار الله جزءًا اساسيًا من ثورة شباط/ فبراير اليمنية عام 2011 لتبدأ بعدها مرحلة جديدة من العلاقات مع طهران ومن ثم تتوج بانتصار في الواحد والعشرين من سبتمبر عام 2014 وتصبح جزءًا من السلطة في صنعاء قبل ان تمسك بها كاملة بعد فرار الرئيس المستقيل عبد ربه منصور هادي الى الرياض.

كانت ايران في ذلك الوقت تدعم في الميدان الحشد الشعبي في العراق والجيش والشعب السوري في مواجهة المد التكفيري الداعشي، وكذلك تواصل مسيرة تطوير قدارتها العسكرية والنووية دون أن يكون لهذه المشاركات الايرانية أي عائد على معالجة مخاطرها، بل كانت تتكبد أكلافًا كبيرة على كل الصعد لإسقاط المشروع الاميركي التكفيري.

يمكن القول إن الدعم الايراني لليمن ظهر بعيد بدء العدوان السعودي الاميركي الامارتي على صنعاء في 26 آذار/مارس عام 2015، في الموقف السياسي والاعلامي ابتداء قبل أن تنشط التقارير الاميركية والغربية والاسرائيلية والخليجية التي تتحدث عن ضبط شحنات اسلحة ايرانية الى اليمن ويتم عرض مشاهد عنها، ثم تظهر أنواع من الصواريخ الباليستية والمسيرات الهجومية والصواريخ المضادة للدروع التي لعبت بمجموعها دورًا هامًا واساسيًا في صد العدوان ووضع حد له بريًا، قبل ان تنتقل القيادة اليمنية الى فرض معادلات قاسية مع السعودية والامارات بالاتكاء على الصواريخ الباليستية والمجنحة والمسيرات الانقضاضية.

تؤكد الرواية الاميركية المعتمدة على أدلة إثبات عندهم أن الدعم العسكري الايراني لانصار الله لم يتوقف في أي وقت عسكريًا وماليًا وسياسيًا واعلاميًا، وكان ذلك سببًا في تشديد الخناق على ايران. وفي حين كان اليمن المحاصر يحتاج الى مثل هذا الدعم كان الرئيس الاميركي باراك اوباما يوقع اتفاقًا نوويًا مع ايران تحت تأثير تعاظم قدراتها العسكرية وموقعها الاقليمي وانعدام الخيارات الاميركية في مواجهتها، مما يؤكد أن القدرات الذاتية الايرانية هي التي جلبت واشنطن ومجموعتها الاوروبية الى هذا الاتفاق وليس توافر وكلاء أو أذرع يشكل تهديدهم للمصالح الاميركية دافعًا اميركيًا غربيًا لهذا الاتفاق الذي كان ترجمة حقيقية لوضعية القوة والقدرة المتنامية التي طورتها الجمهورية الاسلامية في وقت كان حلفاؤها في الاقليم: سوريا والعراق ولبنان واليمن، يعانون من اسوأ ظروفهم في مواجهة المد التكفيري الداعشي في الدول الثلاث الاول وفي مواجهة العدوان السعودي في اليمن، وكانوا هم بحاجة ماسة الى أي مساعدة ايرانية فيما لم يكونوا قادرين على تقديم أي مساعدة لدعم موقف ايران في مفاوضاتها النووية.

هذه هي الحقيقة التي تسقط مجددًا وبالأدلة الحسية مقولة ان ايران اقامت وكلاء واذرع لها في المنطقة لحماية مصالحها والدفاع عنها.

شكلت حرب اليمن وفق تقارير غربية متعددة الجنسيات مختبرًا مهمًا للأسلحة الصاروخية الايرانية وكذلك المسيرات وأنواع اخرى يقول الاميركيون إنهم تثبتوا من ايصالها الى انصار الله، او أن خبراء ايرانيون مكنوا اليمنيين من التصنيع المحلي لنماذج ايرانية من الصواريخ والمسيرات. وتتبعت بعض التقارير الاستقصائية مصادر قطع غيار تم تفكيكها من بقايا صواريخ ومسيرات استخدمتها القوات المسلحة اليمنية قادت جميعها الى شركات واشخاص مرتبطين بايران وفقا لما نشرته تلك التحقيقات الغربية.

الفائدة الاساسية التي جنتها ايران مما وفرته من دعم لليمنيين المحاصرين هو الانسجام مع موقفها الديني والاخلاقي والانساني المناصر للمستضعفين، تمامًا مثلما فعلت في كل الساحات، لكن الفائدة غير المباشرة كانت في تثبت خصوم ايران من فعالية صناعاتها العسكرية التي أختبر بعض منها ايضا في سوريا والعراق ولبنان.

بهذا المعنى تكون الجمهورية الاسلامية هي من وفر الدعم والاسناد والحماية لمكونات اساسية في محور المقاومة وساهمت في تحقيقهم انتصارات كان عائدها الاساسي محلي لصالح الشعوب والقوى التي تعرضت لمخاطر وحروب يمكن القول إن المساهمة الايرانية كانت حاسمة لتحقيق هذه الانتصارات لحلفائها.

خاتمة: الوعد الصادق

تلخص السردية أعلاه طبيعة ونوعية العلاقة بين ايران وحلفائها والتي صبت بمعظمها في صالح هؤلاء الاصدقاء الذين تؤكد الوقائع انهم دائما يتصرفون بوحي من أنفسهم ووفق مصالح بلادهم ومناطق عملهم وبعيدًا عن أي املاءات او طلبات ايرانية. ويستحسن على سبيل الاختبار ايضًا توجيه سؤال لأي مكوّن في محور المقاومة عما طلبته طهران منهم مجتمعين أو منفردين في وقت ما لتحقيق مصلحة ايرانية صرفة أو تحديد متى كانت ايران في حالة ضعف أو قلق أو ضيق واحتاجت اليهم لمعالجة ضعفها او قلقها أو ضيقها. وعلى العكس ربما يسهل الاجابة في حال كان السؤال معاكسًا، وفي هذه الحال يمكن لخصوم ايران أن يجيبوا بأنفسهم عن الحالات التي تعرض فيها حلفاء واصدقاء ايران لتحديات ومخاطر وقامت ايران بلا أي مقابل بتوفير ما يحتاجون من دعم واسناد، بحيث يصح معها القول بثقة وبدقة ان ايران كانت ذراعًا لتلك القوى والمجموعات المظلومة والمستضعفة.

يمكن أخيرًا الاستشهاد بعملية الوعد الصادق بنسختيها الأولى والثانية التي ردت فيهما ايران على استهداف قنصليتها في دمشق في العملية الاولى وعلى اغتيال القائد اسماعيل هنية في طهران في العملية الثانية. في الوقت الفاصل بين الاعتداءين الاسرائيليين حاول اعداء ايران أن يظهروا عجزها وقدرتها على العمل بمفردها وسوقوا لاحتمال ان تستعين بوكلائها للرد على تلك الاعتداءات لتجنب الضربات الاسرائيلية، وكانت النتيجة ان قامت ايران في العمليتين بالتفرد في الرد وادارة ضربات صاروخية ومسيرة قصفت أهدافًا حيوية في عمق كيان العدو، وكانت صواريخ ايران تهطل كالمطر على كيان العدو وعلى مرأى العالم في مشهد مذل لاسرائيل ولقدراتها الدفاعية هي وحلفائها، وكان المميز في عملية الوعد الصادق الثانية أن اصابت مقتلًا كبيرًا من خلال انواع جديدة من الصواريخ والمسيرات باغتت الاهداف الصهيونية بسرعة قياسية غير متوقعة، معلنة تفوق التكتولوجيا الايرانية الهجومية والتكتيكات التي اعتمدتها القيادة العسكرية الايرانية على كل الجهد الاستخباري الاميركي والاوروبي والاقليمي والاسرائيلي الذي إجتهد لتحديد موعد وشكل ونوعية الرد، فكانت المباغتة الاستراتيجية قاسية جدًا على هؤلاء الى درجة ان اسرائيل استعانت رسميًا وعلنًا بمنظومة "ثاد" الاميركية وغيرها ونشرتها في كيان العدو لمحاولة حمايتها من أي رد ايراني جديد متوقع على العدوان الاسرائيل، مما يؤكد ان المعادلة في المنطقة معاكسة، أي أن اسرائيل تحتاج الى حلفائها لكي يدافعوا عنها امام ايران، وان اسرائيل خضعت لشروط اميركية مقابل

توفير الحماية مؤخرا لها بعد عمليتي الوعد الصادق، في حين أن ايران ليس لم تطلب فقط من أي من حلفائها مشاركتها أو توفير دعم أو حماية لها، بل إنها قامت بنفسها وبتوقيتها ودون اخطار أحد بتنفيذ عمليتي الوعد الصادق بأسلحة ايرانية وادارة ايرانية ومعلومات ايرانية، مثبتة حقيقة أن الجمهورية الاسلامية بقدراتها الذاتية لديها ما يكفي للدفاع عن نفسها وعن اصدقائها وحلفائها وهي قوية بذاتها من دونهم وبهم ايضًا اذا ارادوا، اما نظرية تقليم اظافر ايران أو قطع أذرعها فهي مجرد عبارات ومفردات انشائية لملىء الفراغ الاعلامي والتعويض عن عجز اميركا واسرائيل وادواتهما امام الجمهورية الاسلامية، وان قراءة مختلفة للتاريخ المعاصر والوقائع الأخيرة تؤكد كما قال الامام الخامنئي حفظه الله ان ايران تصبح اكثر قوة واكثر اقتدارًا بذاتها، وكذلك جبهة المقاومة التي لا يمكن تفكيكها والنيل منها مهما تعرضت لضربات، مع نقطة ضعف مستمرة لدى اعداء ايران واعداء محور المقاومة انهم دائمًا يفسرون ويفهمون الاحداث من منظور محض مادي ويغيبون البعد الإلهي الحاسم في نصرة وتثبيت المؤمنين والمجاهدين والدفاع عنهم والمكر باعدائهم.